الفصل السابع

التاريخ الشامل وأهم شيوخ مدرسته

ـ معنى التاريخ الشامل .
ـ لانجلوا ، وزينوبوس ، وممسن ، وبيورى ، وتريفيليان .
ـ إيرنست رينان ، وهنرى بيرين .

التاريخ الشامل ، واهم شيوخ مدرسته

معنى التاريخ الشامل :

انتقل علم التاريخ إذن خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ فى أوربا ـ من فرع ثانوى من فروع المعرفة، يمارسه بعض الناس على أنه هواية أو وسيلة للتقرب من الله، برواية أخبار الصالحين، أو للتزلف إلى الملوك بكتابة تراجمهم وتواريخ دولهم، إلى علم مقرر الأصول والمناهج، تخصص له الكراسى والأقسام فى الجامعات، ويقوم بالعمل فى ميدانه مؤرخون أجلاء، ويدرسه طلاب كثيرون على أنه عماد من عُمُد المعرفة الإنسانية، ونشأت عن ذلك العلم التاريخى الجديد علوم أخرى مساندة لهَ أو مساعدة كالآثار وعلم النقوش أو الإبيجرافيا، والخطوط والكتابات القديمة أو الباليوجرافيا، وعلم الوثائق والمحفوظات، وما إلى ذلك مما أنشئت له المعاهد والمراكز والمجلات فى كل بلد من البلاد، بل كان علم التاريخ سبباً فى أكبر حركة سياسية واجتماعية ـ بعد الثورة الفرنسية ـ وهى الثورة الماركسية، وما كان لها من أصداء بعيدة فى كل ناحية من نواحى الحياة فى عالمنا المعاصر، وقد رأينا كيف أن كارل ماركس بدأ فيلسوفاً، ولكنه اعتمد فى إنشاء فكره الاشتراكى على دراسة متعمقة للتاريخ.

وعلى أثر ذلك أخذ نفر من أساتذة المادة يتساءلون عما إذا كان لابد أن يوجد لعلم التاريخ منهجية Methodology خاصة به على النحو الذى بيناه فى فصل خاص من هذا الكتاب ، إلى جانب ما لابد للمؤرخ من التمسك به من مناهج الدقة والاستيفاء والبحث والتحليل التى تشترك فيها العلوم جميعاً . وهنا لابد من الوقوف قليلاً عند كتاب من أحسن ما كتب فى ذلك الموضوع فى نهاية القرن الماضى (سنة ١٨٩٨م)، وهو الذى كتبه المؤرخان الفرنسيان **لانجلوا، وزينوبوس** عن علم التاريخ ومنهجه:

C. V. Langlois et Charles Seignobos : Introduction á l'histoire

فى هذا الكتاب وفق العالمان الفرنسيان أكثر من غيرهما إلى رسم ما يمكن أن يسمى بدستور المؤرخ ، وقالا : **إن التاريخ ربما كان أحوج فروع العلم إلى الالتزام التام بالأمانة ودقة المنهج** ؛ لأن التاريخ ـ كما يبدو ـ ميدان سهل للبحث والتأليف ، ولكنه فى الحقيقة من أصعبها ؛ لأن البحث التاريخى ينبغى أن يكون أصيلاً وصادقاً وقائماً على حقائق ، وفى كثير من الأحيان يصعب ذلك لأسباب نفسية أو عاطفية أو عقائدية، وربما شخصية، ولهذا .. فلابد من أن يتكون المؤرخ تكويناً منهجياً دقيقاً ، حتى يخرج شيئًا له قيمة . وقالا: إن الجانب الأكبر ممن يتناولون التأليف فى التاريخ لا يعرفون لماذا يتخذون التاريخ عملاً ، وربما كان السبب فى ذلك أنهم كانوا أقوياء فى مادة التاريخ فى المدرسة الثانوية ، أو يحسبون أن التاريخ ميدان سهل نسبياً . وربما كان دافع الإنسان إلى العمل فى التاريخ نزعة عاطفية رومانتيكية كما كان الحال مع أوجستان تييرى .

لانجلوا، وزينوبوس، ومومسن ، وبيورى ، وتريفيليان :

وقال لانجلوا وزينوبوس : إن التغير الحاسم فى تاريخ العلم التاريخى تم حوالى سنة (١٨٥٠م) عندما استقل التاريخ بنفسه ، ولم يعد فرعاً من الأدب ، وهما يريان أن المؤرخ لا ينبغى أن ينفق الوقت فى بحث المسائل الصغيرة لمجرد تكديس المعلومات، وقالا: « إنه ليس من هدف التأليف فى التاريخ جلب المتعة إلى القارئ ، أو استخراج قواعد عملية للسلوك أو إثارة المشاعر ، وإنما الهدف الحقيقى هو المعرفة الخالصة البسيطة (La connaissance pure et simple) للموضوع الذى يدرس » .

وفى نهاية القرن التاسع عشر حفلت أوربا بنفر من أعاظم المؤرخين الذين أفادوا من صراع سابقيهم فى وضع التاريخ فى مكانه بين العلوم ، ووضعوا مناهجه ، ومن أكابر هؤلاء : **تيودور مومسن** Theodor Mommsen (١٨١٧ ـ ١٩٠٣م) الذى وضع أساساً متيناً للدراسات الرومانية بفضل معرفته الوثيقة باللغات القديمة ، وتمكنه من منهج العمل التاريخى ، وتضلعه فى قراءة النصوص القديمة ، واستخدام أدوات التاريخ جميعاً ، وهو من المؤرخين القلائل الذين حصلوا على جائزة نوبل .

وفى إنجلترا كثر المؤرخون الذين ساروا على نهج رانكه ومدرسته ، من أمثال **وليام ستابز** William Stubbs صاحب الكتاب المشهور عن تاريخ الدستورالانجليزى و **ج. ب. بيورى** J. B. Bury الذى ألف وأجاد فى كل عصر من عصور التاريخ ، وله كلمة مأثورة فى فضائل علم التاريخ ألقاها عندما خلف اللورد آكتون فى أستاذية علم التاريخ فى كيمبردج ، قال: «وإذا كان علم التاريخ يصبح ـ عاماً بعد عام وأكثر فأكثر ـ قوة عظيمة تعمل على نزع غشاوات الخطأ، وتُعين على تكوين الرأى العام ، وعلى السير إلى الأمام بقضية الحركة الفكرية والسياسية، فإن ذلك العلم سيعمل جاهداً على تكوين طلابه على نحو يمكنهم من القيام بذلك الواجب، لا للانتفاع به فى سد مطالب الأسبوع التالى، أو العام القادم ، أو حتى القرن الذى سيجىء، ولكن لكى يذكروا دائماً أن التاريخ ـ وإن كان يقدم مادة للتاريخ الأدبى أو التأمل الفلسفى ـ فإنه علم قائم بذاته، لا أكثر ولا أقل ، وينبغى الحذر من تطويع ذلك المثل الأعلى لحاجات اللحظة، ولا يجوز كذلك تحديد مجال ذلك العلم وآفاقه».

وقد تغيرت نظرة بيورى مراراً فيما بعد، وذلك يصدق على الكثيرين من كبار المؤرخين ، ولكنهم جميعاً متفقون على أن مواصلة العمل العلمى فى ذلك المجال للكشف عن الحقائق وعرضها عرضاً أميناً سيؤدى حتماً إلى إعطائنا صورة أمينة للماضى. وفى أثناء ذلك حرص المؤرخون على أن يفيدوا من كل المذاهب والنظريات التى جدت فى ميادين العلم الأخرى، من آراء نيوتن فى الطبيعة، إلى نظرية أينشتاين فى النسبية؛ لأن هذا كله يوسع أفق المؤرخ ويزيد فهمه لما يقرأ، ورجل مثل بيورى هذا كان واسع العلم والأفق، يتكلم بثقة فى كل موضوع من موضوعات العلوم، ولهذا فهو يعتبر بحق من أعمدة الفكر الإنجليزى فى عصره، وقد كان يكتب إلى جانب ذلك فى أسلوب أدبى رفيع، مما جعل له مكاناً محترماً فى عالم الأدب. ومثل ذلك يقال ـ وبدرجات متفاوتة ـ عن **فريمان** Edward A. Freeman، **وجرين** G. R. Green، **وسيلى** Seelay فى إنجلترا، **وجورج بانكروفت** George Bancroft (١٨٠٠ـ١٨٩١م)، مؤسس مدرسة

المؤرخين الأمريكيين ، وتاريخه للولايات المتحدة الأمريكية كان ـ ولا يزال ـ مدرسة يتخرج فيها المؤرخون هناك .

ويضارع بيورى فى المكانة ـ وفى الجمع بين صفات المؤرخ والفيلسوف والأديب ـ **جورج ماكولى تريفيليان** George Macauly Trevelian (١٨٧٦ـ ١٩٦٢م)، الذى يعتبر كتابه عن التاريخ الاجتماعى لإنجلترا نموذجاً يحتذى فى هذا المجال العسير من علم التاريخ، وله مقال بديع عن طبيعة علم التاريخ وحدوده جعل له عنواناً طريفاً هو : «Clio, a Muse ـ كليو إلهة التاريخ، إلهة فن» خلاصته أن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً دقيقاً أو واضح المنفعة، كما هو الحال فى العلوم الطبيعية، ولكنه علم فى حدود معينة هى الدقة والاستقصاء فى جمع المادة ، والدقة كذلك فى الموازنة بين الأدلة ، وقال: «وحتى عندما يعالج المؤرخ موضوعاً واضح الوقائع نسبياً كالثورة الفرنسية، فإنه من المستحيل أن يتعرف الإنسان على حقيقة الحالة الاجتماعية والنفسية لخمسة وعشرين مليون إنسان (هم سكان فرنسا إذ ذاك) يختلف كل منهم عن الآخر، اختفوا جميعاً فى ظلام ليل التاريخ، فيما عدا بضعة مئات أو آلاف، هم الذين نعرف كيف كانوا يحسون وماذا فعلوا ؛ وعلى هذا.. فلا أحد يستطيع أن يقدم عرضاً كاملاً شاملاً للثورة الفرنسية، ولكن قراءة الدراسات التاريخية الناقصة خير من لا شىء على أى حال، والمؤرخ الذى يستطيع أن يزن كل الأدلة التى فى متناول يده وزناً دقيقاً ومعقولاً، يستطيع أن يستلفت اهتمام العقول بكلامه، ويثير إحدى العواطف الإنسانية، ويفتح الباب أمام قوى التخيل والتصور.

وذهب تريفيليان إلى أن **توماس كارلايل** Thomas Carlyle وُفِّق إلى ذلك بكتابه عن الثورة الفرنسية، فعرف كيف يصف ـ ببيانه المبدع، وقدرته على فهم طبيعة البشر ـ مشاعر الجماهير الفرنسية، وتمكن كذلك من أن يعطينا صوراً حية لكثير من شخوص الثورة. وقد وفق كارلايل إلى ذلك بأكثر مما استطاع أىّ مؤرخ محترف جمع من الأدلة أضعاف ما جمع كارلايل، ولكنه عاجز عن فهم طبيعة البشر. ولتريفيليان كلمة بالغة الصراحة، وإن كانت ثقيلة على نفس المؤرخ، وذلك حين يقول: «وفى الجزء الأهم من عملية التأريخ نجد أن التاريخ ليس

استنتاجاً علمياً، وإنما هو حدس قائم على التخيل، ومبنيٌّ على أساس أقرب التعميمات إلى الإمكان ..

In the most important part of its business, history is not a scientific deduction, but an imaginative guess at the most likely generalisations .

وفى نفس الوقت الذى اتجه فيه الإنجليز إلى الاقتصاد فى تقدير التاريخ وحدوده ومكانته بين العلوم ، نجد أن الألمان والفرنسيين ساروا فى طريق العمل التأريخى المحكم الدقيق ، محاولين أن يثبتوا أهمية التاريخ عن طريق إخراج أعمال تبهر العقول بدقتها وذكاء أصحابها ، وقدرتهم على الاستخراج والاستنتاج ، وتصوير الماضى كما كان على صورة تحقق ما كان يرجوه ليوبولد فون رانكه إلى حد بعيد .

ففى الجانب الألمانى نجد كثيرين سنقف لحظة عند واحد منهم فقط هو فريدريخ ماينكه Friederich Meinecke (١٨٦٢ ـ ١٩٥٤م) ، وهو من عظماء أعلام التاريخ على مذهب رانكه وبوركهارت ، وقد وجه اهتمامه إلى دراسة الأفكار وتطورها ، وقد شغل ماينكه أعلى مراكز الأستاذية فى جامعات ألمانيا ، وظل أكثر من أربعين سنة (١٨٩٣ ـ ١٩٣٥م) رئيساً لتحرير المجلة الألمانية التاريخية Historische Zeitschrift وهو مشهور بكتب ثلاثة ، تعتبر نماذج تحتذى فى دراسة الفكر السياسى وتطوره :

١ ـ أولها : « الدولية القومية والمواطنة العالمية:

Nationalstaat und Weltbuergertum » (١٩٠٨م) ، وفيه يؤيد فكرة الدولة القائمة على الأساس القومى والعدالة وخدمة الحضارة .

٢ ـ « فكرة صالح الدولة Idee der Staatsraison » (١٩٢٤م) ، وفيه يكشف النقاب عن الصراع والتناقض بين الأخلاق وسياسة القوة ، ويهاجم الميكيافيلية فى عنف ، معتمداً على حقائق التاريخ .

٣ ـ وكتابه الثالث الكبير :

« قيام الحركة التاريخية Entstehung des historismus » (١٩٣٦م) ، يتتبع

فيه قيام علم التاريخ الحديث ، ويؤيد فيه نظرية اعتماد التاريخ على أفراد هم الذين يصنعون التاريخ متابعاً فى ذلك رانكه وجيته .

ومن الفرنسيين نقف عند اثنين ، لابد من ذكرهما فى حديثنا هذا عن بناء علم التاريخ الحديث :

إيرنست رينان :

الأول هو إيرنست رينان Ernest Rénan (١٨١٣ ـ ١٨٩٢م) ، وهو علاَّمة متبحّر فى اللغات والفلسفات والتاريخ ، ومؤلفاته تجمع بين وفرة المادة وعمق الفهم ، وحرية فى الحكم لا نجدها إلا عند القلائل . وقارئ رينان يحس باستمرار أنه يستمع إلى مؤرخ حكيم يتحدث ، فكتابه المسمى: مستقبل العلم L'avenire de la science ، الذى لم ينشر إلا سنة ١٨٩٠م ، يتحدث فيه عن أهمية دراسة تاريخ الأديان ، على اعتبار أنها علم إنسانى له أهمية علوم الطبيعة مثلاً، وفيه نلحظ قلة تدين رينان ، وضعف ثقته فى الكنيسة المسيحية وهو يحاول إثبات أن المفكر الحصيف الجيد التكوين أقرب إلى استكشاف حقائق الحياة والنفس البشرية من رجل الدين المحترف . وفى سنة ١٨٥٢م نشر كتاباً مشهوراً عندنا هو «ابن رشد والرشدية Averroés et l'Averroisme»، وهو دفاع مجيد عن ذلك الفيلسوف الأندلسى الجليل ، الذى كان مركز الدراسات الفلسفية فى جامعات أوربا إلى أواخر القرن السابع عشر ، وحركة الرشدية التى أثارتها فلسفته . والرشدية عند رينان ليست دراسة لآراء ابن رشد ، وإنما هى مجموع الآراء والأفكار التى دارت حول موضوع علاقة العقل بالدين ، سواء صدرت عن ابن رشد ، أم عن غيره . ويتجلى تفكير رينان التاريخى الفلسفى بصورة أوضح فى كتابه الأشهر «مقالات فى الأخلاق والنقد Essais de morale et de critique» (١٨٥٩م) ، وهو مجموعة مقالات نشرها رينان فى : جريدة المحاورات Journal des Délbats، ومجلة العالَمَين Revue de Deux Mondes، و«العالَمَان» هنا هما عالم الفكر، وعالم الدين. وفى هذه المقالات نجد أن رينان يرينا كيف ندرس الأديان دراسة تاريخية إنسانية[1] .

---

(1) F. Millepieres, La Vie d'Ernest Rénan, Sage d'Occident.

وقد كان لرينان أثر كبير فى تاريخنا الفكرى الحديث ، فقد ترسَّم خطاه طه حسين فى الكثير مما كتب أيام كفاحه الأول الطويل فى سبيل تحرير الفكر العربى.

وفى سياق كلامه عن الأديان قال فى الإسلام كلمة جارحة تدل على انعدام فهمه للإسلام، وقد بناها على ما استخرجه من تصرفات المسلمين وإساءاتهم لبعضهم البعض، وهى إساءات شوَّهت صورة الإسلام فى نظر الكثيرين. فنحن ننكر رأى رينان، ولكننا لا نلوم إلا المسلمين .

والثانى هو **هنرى فوستل دى كولانج** Henri Dénis Fustel de Coulanges (١٨٣٠ ـ ١٨٨٩م)، الذى يعتبر مؤسس المنهج العلمى فى دراسة التاريخ فى فرنسا، وهو أستاذ بحق فى علم التاريخ ومنهجه ، وقد وضع للمؤرخين الفرنسيين منهاجاً صارماً يقوم على الموضوعية البحتة، والتركيز على المصادر الأساسية ودراستها فى لغاتها، واستخلاص كل ما تحويه من مادة تاريخية، وقلة الاهتمام بالمصادر الثانوية ، ثم الاكتفاء بذكر الحقائق التى تؤيدها الأدلة دون غيرها. وله كتب كثيرة قائمة على هذه الأسس ، منها كتاب: المدينة العتيقة La Cité Antique (١٨٦٤م)، وقد درس فيه المدن التى كانت فى نفس الوقت دُوَلاً فى العصر القديم La Cité- État ، مثل أثينا وإسبرطة وروما ، وأثر الدين والتطور السياسى والاجتماعى فى تاريخها ، ثم ركَّز همَّه على دراسة نظم العصور الوسطى، وخاصة فى فرنسا، ووضع أسس دراسة الوثائق والمخطوطات،ولازالت كتبه قطعاً من العمل التاريخى الدقيق مثل:« الغزوة الجرمانية ونهاية الإمبراطورية L' Invasion Germanique et la fin de L'Empire» و « الملكية الفرنجية La Monarchie Franque »(١٨٨٨م)، و « الولاء والملكية الزراعية فى العصر الميروفنجى L'allue et le domaine rural pendant l'epoque merovingienne » (١٨٨٩م) وكل مؤرخى العصور الوسطى فى فرنسا من أمثال **مارك بلوك** Marc Bloch[1] من تلاميذ ذلك الرجل.

---

(1) J. Herrick, The Historical Thought of Fustel de Coulanges.

ونختم هذا الكلام عن بعض أكابر أساتذة علم التاريخ المحدثين الذين وضعوا أصوله ، وقرروا مناهجه بكلمة عن المؤرخ البلجيكى **هنرى بيرين** Henri Pirenne (١٨٦٢ ـ ١٩٣٥م) ، ويهمنا بيرين من ناحيتين :

الأولى : أنه عُنى عناية كبيرة بالناحية الاقتصادية ـ لا كعامل محرك للتاريخ كما فعل ماركس ـ بل كجزء من الإطار العام للحقائق التاريخية ، فهو يدرس نظم الضرائب والأسعار ، والتجارة وطرقها وموادها والعملة ، وما إلى ذلك .

والثانية : أنه أحسن من طبَّق ما يسمى بالتاريخ الكُلِّىّ ، وهو مفهوم للتاريخ يختلف عن التاريخ التقليدى ، وهو أن تؤرخ للناحية السياسية لعصر معين، أو تدرس تاريخ واقعة معينة أو حياة رجل بعينه ، أما التاريخ الكلى ، فهو أن تدرس العصر الذى تريد من كل نواحيه : سياسية واجتماعية واقتصادية وحضارية، وتعطى عنه صورة كاملة ، وهذا يقتضى جهداً شاقاً فى جمع المادة اللازمة لعمل الصورة التاريخية الشاملة المطلوبة .

وكنموذج لدراسة الناحية الاقتصادية للتاريخ ، نأخذ كتاب « تاريخ المدن فى العصور الوسطى Les Villes Médiévales » ، لهنرى بيرين، وهو دراسة غاية فى العمق للحياة الاقتصادية فى العصور الوسطى ؛ لأن المدن ظهرت خلال القرن العاشر كمراكز اقتصادية ، صناعية وتجارية .

ويشبه هذا الكتاب كتاب آخر يعد من أجمل وأعمق ما ألَّف بيرين فى تاريخ العصور الوسطى ، وهو« **محمد وشارلمان** Mohammed et Charlemagne » (١٩٣٧م) ، وهو دراسة كاملة لأثر سيادة الإسلام على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن التاسع الميلادى على أحوال أوربا الاقتصادية والاجتماعية . ويقول بيرين، إن سيادة المسلمين هذه أقفلت أبواب اتصال أوربا بالعالم الخارجى ؛ فتم تحول المجتمع الأوربى إلى مجتمع زراعى مقفل ، ثم إن الخطر الإسلامى على غرب أوربا (من الأندلس) ، كان السبب فى ظهور الدولة الكارولنجية نتيجة لانتصار شارل مارتل ـ أو قارله كما يقول العرب ـ على المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ/ ٧٣٢م) ، **ومن كلماته المأثورة : « لولا محمد لما كان من**

الممكن أن يظهر شارلمان».

وأكبر أعمال هنـرى بيرين ، هو تاريخه لبلجيكا Histoire de Belgique ، فى سبـعة مجلدات ، وهو أيضـاً نموذج من التاريخ الكلى الذى يعطى صـورة شاملة للعصـر أو الموضوع الذى يدرس . وحيث إن بـلجيكا لم تولد إلا سنة ١٨٣٠م ، فإن ما سبق الميلاد الرسمى لـبلجيكا ، إنما هو تاريخ أوربا والأراضى المنخفضة بشكل خاص .

ومن أجِلاَّء أساتذة مـدرسة التاريخ الكلى جورج ليفـيفر George Lefèvre (١٨٧٤ ـ ١٩٥٩م) ، الذى سـار على المنهج الدقـيق الذى يلتـزم الأصـول بكل دقة، **وله كلمة مأثورة هى : «لا وثائق ؛ لا تاريخ».**

وأجِلاَّء شيوخ هذا الفن (فيما بين ١٨٥٠م والحرب العالمية الأولى) كثيرون غـير هؤلاء ، ولكننا نـكتفى بمن ذكـرنا مـمن كان لهم الفـضل الأكـبر فى جـعل التاريخ علماً مسـتقل الشخصية ، واضح المنهج والطريقـة ، وأثبتوا للناس أنه من أهم نواحى الدراسـات الإنسانية ، وأبعـدها أثراً فى تكوين العقل الـواعى المدرك لحقائق الحياة .

***